جهود سمير الخليل في النقد الثقافي

حطاب طانية
جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم
thattab@yahoo.fr

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019-01-28	2019-05-18	2019-12-01

ملخص :

لقد أضحى النقد الثقافي في الوطن العربي من أكثر المجالات العلمية استقطابا للباحثين والنقاد والمفكرين في هذا العصر بعد أن أثبت قدرته على الكشف عن كل الأنساق الثقافية المعلنة منها والمضمرة والتي تحكم بطريقة أو بأخرى الإنسان العربي وتوجه تفكيره وسلوكياته الاجتماعية المختلفة.

ويعد الناقد سمير الخليل من أكثر النقاد تميّزا في مجال النقد الثقافي تنظيرا وممارسة، إذ تشهد مؤلفاته في هذا الحقل المعرفي على تفرّده وريادته في العديد من الأمور. سأحاول في هذه الورقة البحثية الكشف عن جهود سمير الخليل في النقد الثقافي من خلال كتابيه "ضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب" و" دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافية" وتبيان إضافاته في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: سمير الخليل، النقد الثقافي، النسق المضمر، عبد الله الغذامي، الدراسات الثقافية.

تقديم:

يعدّ الناقد العراقي سمير الخليل من أبرز النقاد في الوطن العربي من ذوي الأقلام الجادة والجريئة في طرح المواضيع الشائكة والجديدة في النقد العربي المعاصر. وهو إضافة إلى تخصصه في النقد الحديث والمعاصر والذي ألف فيه الكثير من المؤلفات أهمها: مقاربات نقدية لنصوص حداثية، علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي، التوليف في الشعر العربي المعاصر، محاولات التجديد في شعر أحمد الصافي النجفي، تقويل النص، مقتربات السرد الروائي، ما يحتمله السرد وغيرها كثير، فإنه قد خصّ النقد الثقافي بمؤلفات بالغة الأهمية نذكر منها: النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب 2013، فضاءات النقد الثقافي 2014، ودليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي- إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة- 2016. وسأحاول في هذه الورقة قراءة الكتابين الأخيرين استجلاء لجهود هذا الناقد المتميّز.

أولا: كتاب فضاءات النقد الثقافي:

هو كتاب صادر عن دار تموز للطباعة والنشر بدمشق عام 2014، يقع في 300 صفحة من الحجم المتوسط طرح فيه سمير الخليل مجموعة من الإشكالات التي تخص النقد الثقافي بدأها بالحديث عن مفهوم النقد الثقافي، وإبراز أهم الفروقات التي تميّز النقد الثقافي عن الدراسات الثقافية، ثم الحديث عن إسهامات النقاد العرب في النقد الثقافي ليكون التركيز على جهود عبد الله الغذامي وريادته من خلال طرح مجمل ما تناوله في مؤلفاته ومناقشته بموضوعية شديدة، إضافة إلى خوضه في مواضيع أخرى تندرج ضمن إطار النقد الثقافي كالنقد النسوي، والعنف اللغوي في الثقافة العراقية وغير ذلك.

ولهذا يحق لنا منذ البداية الادّعاء دون كثير حرج أنّ الناقد سمير الخليل من خلال كتابه هذا قد تمكّن من التأسيس للنقد الثقافي بطريقة مشابهة لطريقة الغذامي، ولكنه قد طعّم كتابه بإضافات متميّزة سنحاول الكشف عنها من خلال ما سيلي.

*** في مفهوم النقد الثقافي:**

" النقد الثقافي ليس بمنهج نمطي له حدود معينة إنما هو نشاط إنساني معرفي يتناول مختلف المنجزات الفكرية والمعرفية والخطابات الحاملة لأنساق تاريخية أو تداولية اجتماعية بل حتى الخطابات المهملة كالإعلانات والمسجات المرتبطة بالهاتف النقال والنكات التي يعبّر عنها بصيغ لغوية أو الخطابات المرئية/ المسموعة (الخطابات الصورية) وباختزال واضح كل الخطابات التي يعبّر عنها من

خلال الثقافة ونعثر فيها على (تهريبات نسقية) ليست في وعي الكاتب أو المنتج للخطاب لأنها تطرح نفسها عن طريق ما نسميه (بالمؤلف الثقافي) الذي يكمن في الخلفيات النسقية للكاتب التاريخي الحاضر فيزيائيا (بلحمه ودمه)، فلا مهمش فيه- أعني النقد الثقافي- وما يهمه هو الكشف عن أنساق مضمرة أخفتها جماليات الأداء أو ما يسميه عبد الله الغذامي بـ (الحيل النسقية) وما هو ظاهر يحيل إلى غير الظاهر المخالف أو المضاد أو الحامل للعيوب النسقية في كل خطاب. ومع أن في حضور الخطاب مفاتيح لتهريبات نسقية تفتح الآفاق عن أنساق ما ورائية كامنة فيه."[1]

فالنقد الثقافي ليس منهجا محددا يشبه مناهج النقد المعروفة، بل هو نشاط إنساني يهتم بتحليل مختلف الخطابات التي تعبر عن الممارسات الثقافية في جوانبها الاجتماعية والتاريخية والدينية.

وفي معرض حديثه عن النقد الثقافي في مقابل النقد الأدبي، يشير الناقد سمير الخليل إلى تلك الثورة التي أثيرت ضد عبد الله الغذامي حين قال إن النقد الأدبي قد احترق ومات ولم يعد صالحا لتحليل النصوص الأدبية لأنه استنفذ كل أدواته الإجرائية، ليردّ عليه عبد النبي اصطيف ردّا قويا مدافعا عن النقد الأدبي مشيرا إلى كل ما أنجزه عبر تاريخه الطويل. يقول:" إنّ جلّ الاعتراض المقدّم من عبد النبي اصطيف تمحور حول محاولة الغذامي التجاوز على التراث النقدي والبلاغي العربي وهي – في حقيقة الأمر- لم يقل بها الرجل ولم تكن كذلك، بل إننا نلاحظ أن عبد النبي اصطيف قد بالغ في دفاعه عن النقد الأدبي فلم يترك شاردة أو واردة تدلل على عظمة هذا النقد لم يقلها، وأستطيع أن أقول إن اصطيف قد تموضع في خندقه من غير أن يجنح إلى الرد العلمي المستند إلى التحليل فضلا عن فقدانه حجة الرفض إلى المفسّر الفلسفي والحضاري وكأنّ الكرة تعاد حين بدأ نقدنا الأدبي من غير رؤية فلسفية كما هو لدى الغرب، ولا نجد كذلك سمة النظرية عند الاحتجاج الرافض مع أنّ الغذامي قدّم ما يكاد يشبه النظرية بإجراءاتها ومقارباتها."[2]

وقد أوضح سمير الخليل الفرق بين النقد الأدبي والنقد الثقافي بأن حصر فضاء النقد الأول بالنص الأدبي وإجلاء جمالياته، بينما يبحث النقد الثاني في كل الخطابات دون استثناء كالإعلانات والصور والرسائل الهاتفية وما يكتب وراء الزجاج الخلفي للسيارات والنكات بل وحتى النصوص الأدبية التي يعتبرها ظاهرة ثقافية كغيرها من الظواهر. فالنقد الثقافي لا يهمه الكشف عن الجمالية في الخطاب بل الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة فيه. يقول:" فالنقد الثقافي نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية والقيم الحضارية بل حتى الأنساق الثقافية الدينية والسياسية، أمّا النص الأدبي فيتعامل معه ليس بوصفه نصا جماليا بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر ما هو مضاد

للمعلن في النص الأدبي، ويقصي الجانب الجمالي ووظيفته الشعرية لأنه يؤدي إلى (العمى الثقافي) الذي لا يجعلنا نرى أو نكتشف (الحيل الثقافية) التي يتوسم بها لتمرير أنساقه المضمرة، والنقد الأدبي هو الذي يعنى بالجمالي والشعري في الأداء النصي."[3]

وبالتالي، يبدو من خلال هذا الفصل الذي وضعه الناقد أن الفرق ظاهر بين النقد الأدبي والنقد الثقافي ولا مجال للخلط بينهما. وممّا هو ناصع الدلالة هنا أنّ الرجل قد حاول تبسيط الأمر على القارئ إذ جعل النقد الأدبي بكل مناهجه وإجراءاته مركزا على شعرية النص الأدبي وجمالياته الظاهرة، بينما جعل فضاءات النقد الثقافي أوسع حين تركها مفتوحة على كل الخطابات المكتوبة والمسموعة والمصورة مركزا على ما تضمره من عيوب نسقية وأنساق ثقافية مستترة هي في تضاد مع ما تقوله هذه الخطابات.

ولم يتوقف الرجل على هذا فحسب، بل راح يبسط أكثر الفرق بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، فكثير من النقاد والباحثين لا يعي الفرق بين الحقلين ويعتبرهما شيئا واحدا. ولكن الواضح أنّ الدراسات الثقافية هي الأسبق في الظهور والأكثر اتساعا من حيث دائرة الاهتمام، " لقد بدأ الاهتمام بالدراسات الثقافية أولا ثم بالنقد الثقافي مزامنا للتغيرات التي نقرنها بما بعد الحداثة، ولم يكن الاهتمام محض (موضة) فله أسبابه وبواعثه وانشغالاته. وكان للدراسات الثقافية الفضل الأكبر في كسر (مركزية النص) والتحوّل إلى الخطاب. ولم تنظر إليه بوصفه نصا وإلى دوافع إنتاجه الاجتماعية والفنية. لقد صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما ينكشف عنه من أنظمة ثقافية، فالنص هنا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خام تستخدم لاستكشاف أنماط معينة. فالنص ليس هو الغاية القصوى للدراسات الثقافية، وإنما غايتها المبدئية الأنظمة في فعلها الثقافي في أي تموضع كان بما في ذلك تموضعها النصوصي."[4]

انطلاقا من هذا يمكن القول إن الدراسات الثقافية قد سبقت النقد الثقافي في الظهور، وعنها انبثق. والواضح كما يشير إلى ذلك سمير الخليل أن كلاهما يهز الخطاب المؤسساتي المعشعش والثابت من الأعماق ويخلخل كيانه من الداخل ليكشف عن عيوبه الثقافية.

تبحث الدراسات الثقافية عن ثقافة الخطاب وعن رؤية الكاتب الأيديولوجية والفلسفية تجاه موضوع معين، بينما يبحث النقد الثقافي عن نسق ثقافي مضمر مضاد للظاهر. فالنقد الثقافي يخص الثقافة النخبوية والثقافة الشعبية، يخوض في العادي والمبتذل والوضيع واليومي والسوقي. هو يبحث عن مستهلك ثقافي وهذا أهم فرق بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية حسب ما وضحه سمير الخليل.

ثم يخوض الناقد في مسألة الجهود العربية في النقد الثقافي (النظرية والمنهج) مركزا على جهود عبد الله الغذامي في كتابه النقد الثقافي – دراسة في الأنساق الثقافية العربية- وكتبه الأخرى كثقافة الوهم، المرأة واللغة وغيرها.

بداية، يعترف سمير الخليل بريادة عبد الله الغذامي في هذا المجال محاولا الوقوف عند أهم ما أشار إليه الغذامي شرحا وتحليلا. وهنا سنقف عند بعض المسائل الجوهرية لدى الغذامي والتي أشار إليها سمير الخليل مؤيدا أو مخالفا مع ما ذهب إليه الغذامي.

أ/ الدلالة النسقية: يشير سمير الخليل إلى وجود نوعين من الدلالة: صريحة هي العملية التواصلية، وضمنية هي أدبية جمالية. " بينما يقترح الغذامي نوعا ثالثا من أنواع الدلالة هو (الدلالة النسقية) ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكوّن عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا، ولكنه وبسبب نشوئه التدريجي تمكن من التغلغل غير الملحوظ وظل كامنا هناك في أعماق الخطابات، وصار ينتقل ما بين اللغة والذهن البشري فاعلا أفعاله من دون رقيب نقدي لانشغال النقد بالجمالي أولا، ثم لقدرة العناصر النسقية على الكمون والاختفاء."[5]

ثم يوضح سمير الخليل أنّ الكشف عن هذه الدلالة النسقية يحتاج إلى ذهن متوقد ورؤية عميقة للخطاب. ثم إنه يفضّل استعمال مصطلح النسق المضمر بكل آليات اختفائه على مصطلح الدلالة النسقية بل يعتبرهما واحدا.

ب/ الجملة الثقافية النوعية: يقول الناقد سمير الخليل:" إذا كانت الدلالة الصريحة تستند إلى الجملة النحوية، والدلالة الضمنية تنشأ عن الجملة الأدبية فلا بدّ لنا من تصور خاص يسمح للدلالة النسقية بأن تتولّد، وهو ما أطلق عليه الغذامي (الجملة الثقافية) وأقترح تسميتها بـ (التهريب النسقي) وهو مفهوم يمس الذبذبات الدقيقة للتشكل الثقافي الذي تفرز صيغه التعبيرية المختلفة وبهذا تكون (الجملة الثقافية) متولدة عن الفعل النسقي في المضمرة الدلالي للوظيفة النسقية في اللغة."[6]

كما عرض لباقي المصطلحات التي وضعها الغذامي من مثل التورية الثقافية والمؤلف المزدوج والمجاز الكلي، حيث اعتبر التورية والمجاز أدوات إجرائية لاكتشاف النسق، أما المؤلف المزدوج فلم يحبب التسمية واقترح مصطلح المؤلف الثقافي المسؤول عن تمرير النسق المضمر.

وفي كتابه دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي يشرح الناقد سبب اقتراحه مصطلح (التهريب النسقي) بدل (الجملة الثقافية) قائلا:" ولا بدّ من التنويه هنا إلى أني اقترحت في

كتابي (فضاءات النقد الثقافي) تسمية أخرى للجملة الثقافية آمل أن تشيع مصطلحا لدى المهتمين بالنقد الثقافي هي: (التهريب النسقي) في مقابل (الجملة الثقافية) لأن الجملة قد تعني حدودا لمفردات لغوية أو تركيب نحوي، في حين (التهريب) قد يكون بمفرده أو جملة أو فحوى مستخلصة من مجموع الخطاب المقروء أو المسموع أو البصري لأنه يمثل حركة للدال في حركته مع المداليل الخارقة للزمن والمختفية في الخطاب وهو ما يشتمل عليه النقد الثقافي."[7]

لقد حاول سمير الخليل بسط مشروع الغذامي في النقد الثقافي بسطا مفصلا محترزا الدقة والموضوعية في ذلك. نوّه بداية بريادة الغذامي وجرأته في ولوج عوالم النقد الثقافي والتأسيس له في الوطن العربي. يقول:" ولا شكّ أن مشروعه من الجدّة والسبق ما يجعله جديرا بالاهتمام والتلقي الهادئ، وتسجّل له الريادة والجرأة في هذا المشروع بحكم بيئة الرجل وهي بيئة أقل ما يقال عنها بأنها منغلقة ونخبوية واحتكامها إلى الماضي وتعلقها بمفاهيم أورثتها لها مرجعياتها النخبوية شأنها شأن عديد من البيئات العربية، فمن رحم تلك البيئة خرج الرجل بأفكار حداثوية حضارية تسعى إلى النهوض بالواقع العربي الذي تسيطر عليه موروثاته وأعرافه والأنساق المضمرة في ثقافته.."[8]

ولكن محاولة الغذامي هذه لم ترق لبعض النقاد ممّا أثار ضدّه زوبعة نقدية استهدفت مشروعه على الصعيدين النظري والتطبيقي. ويشير سمير الخليل إلى " أنّ أكثر المآخذ عليه (الغذامي) يتركز في استعماله للمنظومة المصطلحية التي حاول طرحها بديلا عن النقد الأدبي، إذ قال بضرورة تجديد عناصر الرسالة عند (ياكوبسن) وأضاف إليها العنصر النسقي وطرح مصطلحات ذكرناها سابقا وهي: المجاز الكلي، التورية الثقافية، الدلالة النوعية، الجملة الثقافية، المؤلف المزدوج، ولو استثنينا (المؤلف المزدوج) أو (الثقافي) لوجدنا تلك العناصر متداخلة متماهية مع بعضها وجميعها يحيل إلى (النسق المضمر)، فلم يوظف في إجراءاته سوى الجملة الثقافية واقترحت تسميتها ب (التهريب النسقي) وما يتصل بها من نسق ثقافي عدّ السابع بعد عناصر الرسالة عند ياكوبسن الستة كما نوهنا. كما أنه توسع في اشتغاله على الخطاب الشعري الأمر الذي جعل د.محسن جاسم الموسوي يقول: إنّ الثقافة العربية فيها أنماط أخرى غير الشعر لأن كل مرحلة تطرح جنسا أدبيا إو ثقافيا. ونرى أن العناصر التي أثبتها في مشروعه من الممكن عدّها أدوات إجرائية للكشف عن النسق المضمر وليس عناصر سائبة أو آليات للنقد الثقافي. وعليه نرى بقاء الجملة الثقافية التي اقترحنا تسمية لها، والمؤلف المزدوج الذي أسميناه (المؤلف الثقافي) (النسقي) لأنه خالق النسق. أما المجاز الكلي والتورية فهي حيل لإخفاء النسق المضمر. فالنقد الثقافي في مشروعه فيه قضية وحيدة ومهمة وهي النسق المضمر الكامن وراء الظاهر في الخطاب."[9]

ويكشف لنا الناقد سمير الخليل مواطن القوة في مشروع عبد الله الغذامي في النقد الثقافي والتي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:[10]

1- محاكمة الغذامي للنصوص الأدبية (الرسمية) التي استقرت في الوجدان العربي بوصفها خطابات عليا تتحكم بذائقتنا وتوجيه أفكارنا.

2- اقترابه من المحرمات ولا سيما في تشريحه لكتب الجنس لدى العرب خصوصا ما كتبه النفزاوي وابن القيم ومحاولة إنصاف المرأة التي أصبحت كائنا منهكا في تلك الكتب. وكذا في الخطاب الشعري والحكائي العربي.

3- دفاعه المستميت عن المرأة ككيان له وجوده وقيمته.

4- حراكه الثقافي تزامنيا (سايرونكيا) وتعاقبيا (دياكرونيا) كنقده لأبي تمام ثم العودة لأدونيس القريب من الغذامي زمنيا ومن أبي تمام نزعة حداثوية.

5- شمولية مشروعه وتنوع خطابات النقد الثقافي لديه ما بين السياسة والاجتماع والدين والأدب والإعلام.

6- كشفه للعيوب النسقية التي يحملها الشعر العربي وكسر صورته النمطية في العقل العربي.

7- جرأته في فضح ما يعتري الثقافة العربية من أنساق مضمرة وهتك أسرارها بما لم يفكر فيه أحد من قبل.

وأحسب أن الرجل كان عادلا وموضوعيا إلى درجة يحسد عليها حين عرض مشروع الغذامي بكل تفصيلاته وناقشها وناقش ما تعرض له هذا المشروع من انتقادات رادّا عليها بالقبول أو الرفض متوسلا الحجج العلمية المقنعة. ولم يكتف الناقد بعرض مواطن القوة في مشروع الغذامي فحسب، بل نلفيه هو الآخر يعرض بعض مواطن الوهن التي ميّزت هذا المشروع تنظيرا وإجراء بسبب الريادة، نلخصها فيما يلي:[11]

1- تصويره للحداثة وكأنها حداثة شعرية فقط وكأنه يستسلم لمقولة العرب في الشعر، أي أنه يخضع في بعض الأحيان لنسق يظن أنه يحاربه لأنه عيب نسقي.

2- قصر كثيرا من إجراءاته على المتن الشعري مع إصراره بأن النقد الثقافي يتسامى على النص الأدبي ويبحث عن الخطاب الأدبي والعام، وحصر نفسه في زاوية ظنها من عيوب النسق بقوله بأن

الشخصية العربية متشعرنة انطلاقا من المتون الشعرية في الأعم. وهذا أمر يجب إخضاعه للواقع لأن المتن النثري العربي كان حافلا بالكثير من المضمرات النسقية والظاهرة كالمتن الديني والمتن الجنسي.

3- تجاهل الغذامي للوسط الذي نشأ فيه فهو يسلط نقده للقضايا المعاصرة خارج حدود بلده ولا يخرج عن ذلك إلاّ لماما.

4- لم يطلعنا الغذامي على مصادر مشروعه كما فعل محسن جاسم الموسوي، فالغذامي ينقل عن (ليتش) دائما وفي أحيان كثيرة يختلط الأمر علينا فلا نفرق بين كلامه وكلام ليتش.

5- بعض الخطابات والنصوص التي يحاورها الغذامي يبالغ في استبطانها وبعضها يعاملها بعمومية ويدّعي أنه يستنبطها.

6- إذا كان الغذامي قد عرّب النقد الثقافي فهو من جهة أخرى قد بالغ في تركيزه على نصوص وأغفل أخرى كالنصوص الدينية التي نالت مساحة واسعة في نقود الغربيين مع عدم نسياننا لتعرضه لبعض تلك النصوص في كتابه (الفقيه الفضائي)، فهو كما نظن لم يكن أمينا لمنهجه في كشف عيوب الأنساق المضمرة لبعض المتون الدينية ولم يعلن رفضه للمارسات التي تلبس ثوب الديني اعتمادا على نصوص دينية ترى فيها تأويلا يشوّه وجه ديننا وماضينا وحاضرنا.

7- حماسة الغذامي المفرطة في الهجوم على (أدونيس) بالذات وتكراره الأمر في أكثر من كتاب تكشف عن نسق مضمر في مشروعه يجعلنا نذهب إلى كون الأمر شخصيا بينه وبين أدونيس لا يعنينا كثيرا، و"أنّ آراءه مغالية ومفرطة إلى الحدّ الذي يجعله يستعين بزخارف البلاغة العربية في هجومه عليه مما أوقعه في شرك نصبه هو للآخرين.

8- كان انتقائيا في نقده للمؤسسة السياسية، والخطاب العربي المؤسساتي برمته كان يدعّم الطغاة ويمجدهم، غير أنه ركّز على صدّام حسين وحده ولم يذكر الآخرين الذين لا يقلّون عنه طغيانا في كثير من الأقطار العربية.

ويؤكد سمير الخليل بعد هذه الانتقادات التي وجهها لمشروع عبد الله الغذامي في النقد الثقافي أنّ الرجل كان رائدا في مجاله، وقد يقع الرواد في مثالب قد يأتي بعدهم من يكمّلها. ويكفيه فخرا أنه حاول واجتهد وحقق ما لم يحققه غيره من العرب.

ثمّ يضيف قائلا:" إنّ مشروع عبد الله الغذامي في النقد الثقافي شكّل إضافة نوعية فهو مشروع حيوي وفيه طرافة على الدراسات العربية، وعلى الأقل أتاح لنا سهولة الحركة داخل الخطاب الأدبية وغيرها واكتشاف لعبة اللغة وحيلها التي طالما مرّرت من خلالها أنساقا مضمرة شكّلت

مرجعيات ثقافية لمدة طويلة، وهو من أخذ بأيدينا لكشف مضمرها النسقي وإني على المستوى الشخصي ولّد عندي جرأة غير مسبوقة في استيلاد الخطاب الأدبي وما لا يرى في النص. ولفت نظري إلى أنّ النص الأدبي والشعري بخاصة مادة غفل مسكوت عن تفاصيلها، وما بدا فيه غير ما يضمر، وما يشاع غير ما يذكر، فضلا عن سهولة تلقي الغذامي ولا تعني هنا السذاجة."[12]

ولن أجافي الحقيقة إن ادّعيت أنّ الرجل قد أعطى الغذامي حظه ووفّر عليه حقه لما قرأ مشروعه قراءة نقدية متمحصة التزم فيها الدقة والموضوعية، مبسطا للقارئ أسس هذا المشروع ودور الغذامي في الإشارة إلى أكثر القضايا الثقافية إشكالا لدى العرب. ثمّ حين عرض مواطن القوة والوهن في مشروعه محاولا استدراكها بكثير من العلمية التي توخاها في كل كتابه، ثم نجد الناقد يطرح قضايا أخرى تخص النقد الثقافي فتحدث عن صراع الهويات، الاستشراق والمركزية الغربية، الجنوسة، وتناول الأدب النسوي والنقد النسوي بكثير من التفصيل لاستبطان العيوب النسقية للثقافة العربية في نظرتها للمرأة، ليطرق في آخر الكتاب إشكال العنف اللغوي في الثقافة العراقية وكيف استفحل العنف في ثقافتنا حتى طال اللغة.

يضم الكتاب زبدة أفكار الناقد سمير الخليل في النقد الثقافي أظهر فيه الرجل القدر الكبير من الجرأة في الطرح والتناول بلغة بسيطة وهي على بساطتها جميلة وراقية تجعل القارئ يعاود القراءة المرة تلو الأخرى إفادة ومتعة.

ثانيا: كتاب دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي:

يعدّ هذا الكتاب كتاب العمر بالنسبة للناقد سمير الخليل لأنه استنفر كل طاقاته من أجل إنجاز هذا المشروع بجهد فردي اهتماما منه بحقلي الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، في حين يتطلب الأمر جهودا متضافرة.

بداية يطرح الناقد قضية الخلط الكبير بين حقلين متقاربين هما الدراسات الثقافية والنقد الثقافي وما نتج عن هذا الخلط من ميوعة في المفاهيم وعشوائية في استعمال المصطلحات حتى لدى بعض النقاد من ذوي الاختصاص. فيوضح حدود كل حقل منهما مبينا مجال اشتغاله قائلا:" فالدراسات الثقافية والنقد الثقافي حقلان متداخلان ويعملان على تفكيك البنى الثقافية وأنساقها، والسياقات الثقافية وتحليل الخطاب المؤسساتي والسلطوي وتقويضه، والمادة الأساسية لاشتغالهما هي الثقافة التي تعدّ من المفردات الشائكة والغامضة على رأي (تيري إيغلتن)، فقد بلغت تعريفاتها أكثر من مئة وستين تعريفا (...) ولقد جاءت الدراسات الثقافية لتسائل الذات وتجعلها موضوعا قابلا

للتحليل ونقد مسلماتها وكشف تحيزاتها، ولعل أهم ما جاءت به مناهج (ما بعد الحداثة) هو إعادة تقييم العلاقة بين الذات والموضوع، ومساءلة العقل واستجواب الذات من الذات نفسها لتكون موضوعا خارجا عن أرضها الثقافية وبنيتها المؤسساتية، ومن هنا بزغ النقد الثقافي ليرسم إطاره العام بوصفه مشروعا معرفيا منفتحا على مجمل الحقول المعرفية مثل الأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والاقتصاد ليؤسس رؤية واضحة تقف عند أنساق مضمرة تتحكم في إنتاج الخطاب واستهلاكه وكيفيته وتأويله، مما وسّع من منظومة مصطلحاته بعد أن أفاد كثيرا من الدراسات الثقافية وممارساتها لتحليل السلوك الثقافي بوصفه نشاطا إنسانيا."[13]

إذن فقد تفرع النقد الثقافي عن الدراسات الثقافية كنشاط إنساني فعال أفاد منها ومن كل الحقول المعرفية المجاورة لتتوسع منظومته المصطلحية أكثر فأكثر. ولهذا نجد أن مصطلحات النقد الثقافي كثيرة جدا ومتشعبة لأنه استقاها من كل العلوم والمعارف التي أفاد منها ويتماس معها مما أربك المتلقي وأحدث لديه نوعا من الميوعة المصطلحية إن صحّ التعبير.

ولا ضير من التذكير أن أزمة النقد العربي المعاصر أزمة منهج من جهة، وأزمة مصطلح من جهة ثانية لأن عدم ضبط المصطلح بشكل دقيق بين المشرق والمغرب العربي مسألة خطيرة جدا مما جعل البحث العربي عامة في أي حقل معرفي كان يعيش نوعا من الفوضى والعشوائية التي تؤدي مع مرور الزمن إلى انزلاقات خطيرة جدا في الفكر والثقافة العربيين.

" جاءت فكرة هذا الكتاب –يقول سمير الخليل- خدمة للباحثين والدارسين بعد أن عانيت من تشتت المصطلحات الخاصة بحقلي الدراسات الثقافية والنقد الثقافي واتساعها وتداخل الحقول المعرفية المجاورة معهما، فاستنفرت كل طاقاتي من أجل إنجاز هذا المشروع بجهد فردي اعتمادا على اهتمامي بهذين الحقلين ومتابعتي لهما."[14]

لقد أحصى الناقد ما يفوق 155 مصطلحا في الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، وهي المصطلحات المتداولة بين الباحثين في هذين الحقلين، تناول سمير الخليل كل مصطلح على حدة، عارضا إياه ومضيفا عليه بعض الأمثلة التوضيحية من أجل دقة فهمه وإضاءة مفهومه وجعله سهل التناول والتداول. ومن جهة أخرى، لم يستند على الجذر اللغوي للمصطلح بل رتبه حسب التسلسل الهجائي، مشيرا إلى المراجع التي اعتمدها في توثيق المصطلح في المتن بعد عرض المصطلح مباشرة. كما أنه اعتمد المقابل الانجليزي لكل مصطلح ممّا زاد من قيمة هذا الدليل العلمية.

يعزى للناقد سمير الخليل الفضل كله في وضع دليل للمصطلحات الثقافية التي تخص هذين الحقلين متوخيا الدقة والوضوح. كما يضرب له قصب السبق في هذا المجال لأنه كان رائدا في وضع معجم أو دليل لمصطلحات النقد الثقافي والدراسات الثقافية ممّا سهّل على المهتمين بهذين الحقلين مهمة البحث والدرس، لأن أي علم أو منهج يحتاج إلى ضبط لمصطلحاته ضبطا علميا مؤسسا. فالمصطلح يخفي وراءه مفهوما، والمفهوم يعبر عن فكر أو فلسفة.

وختاما يمكن القول دون كثير مغالاة إن الناقد سمير الخليل قد حاول التأسيس للنقد الثقافي في الوطن العربي مستفيدا من تنظيرات الغربيين وتطبيقات الغذامي والموسوي وغيرهما، فاكتسب الجرأة العلمية للخوض في غمار موضوعات ظلت عبر الزمن تابوهات في الثقافة العربية. كما يحسب له أنه طعّم نقده برؤى حداثية جديدة وبإضافات تشهد على فكره المنفتح، وذكائه العلمي المتوقد. ويعد كتابه الثاني دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي أكبر بصمة ميّزت نقده لا لأنه كان رائدا فيه فحسب، بل لأنه كان علميا وواضحا ممّا جعله بحق إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة.

استنتاجات عامة:

1/ يعتبر سمير الخليل عبد الله الغذامي صاحب مشروع كبير في النقد الثقافي، وكتابه الأول النقد الثقافي- دراسة في الأنساق الثقافية العربية- لا يمثل كل مشروعه.

2/ هو يؤمن بأن الغذامي هو رائد النقد الثقافي في الوطن العربي ولا بدّ من وجود عيوب للريادة وهو ما عالجه في كتابه فضاءات النقد الثقافي.

3/ يعتبر الناقد أن بعض المصطلحات زائدة فيما طرحه الغذامي ويكتفي بمصطلحين هامين يرى كل مشروع الغذامي يقوم عليهما وهو (النسق الثقافي المضمر) بكل شروطه التي وضحها، ومصطلح (المؤلف المزودج)، أما باقي المصطلحات فيعتبرها سمير الخليل أدوات إجرائية لكشف النسق الثقافي المضمر، فالجملة الثقافية والتورية الثقافية والدلالة النسقية هي أدوات لكشف النسق.

4/ يقترح سمير الخليل مصطلح (المؤلف الثقافي) بديلا عن (المؤلف المزدوج) كما سماه الغذامي. ويعتبر المؤلف الثقافي هو خالق النسق وناقله من غير وعي المؤلف الواقعي. فالمؤلف الواقعي له وجود وهو صاحب الخطاب، بينما المؤلف الثقافي هو مضمر نرى آثاره من خلال ما يمرره من أنساق مضمرة في الخطاب.

5/ كما يقترح تسمية أخرى للجملة الثقافية التي قال بها الغذامي وهي (التهريب النسقي) والذي يأمل أن يشيع مصطلحا في النقد الثقافي، لكي لا يذهب الذهن بعيدا ويظن أن الجملة الثقافية ذات ملفوظ لغوي لدى الغذامي في حين أن التهريب النسقي يشكل خلاصة استنتاجية أو رؤية محددة ثقافيا من خلال الخطاب.

6/ ركّز سمير الخليل على مصطلح الخطاب مع أنه ورد لدى الغذامي، ولكن تأكيده عليه لكي يتجاوز النقد الثقافي النص الأدبي والملفوظ اللغوي إلى خطابات أخرى بصرية مثل الصورة، أو ثقافة الصورة وما يسمى بثقافة الوسائل مثل المسلسلات والصور الإعلانية والمسجات في الهواتف النقالة والكاريكاتير والأيقونات الحاسوبية وغيرها.

7/ عمل الناقد جاهدا على إبراز الفروقات الجوهرية بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي بتفصيلات لم يهتم بها الغذامي بسبب الريادة، وافترض الناقد أن النقد الثقافي مختص وحده بالنسق المضمر متبنيا رأي الغذامي، وبكون النقد الثقافي يهتم بخطابات ليست من اهتمامات الدراسات الثقافية.

8/ حاول الناقد بيان أن الغذامي كان صارما في مقولته بموت النقد الأدبي في حين يرى هو أن النقد الأدبي سيبقى قائما ولن يتراجع، ولكن لكل نقد اهتمامه. فالنقد الأدبي يهتم بالنص الأدبي حصرا وبسبر أغواره وتشخيص جمالياته، في حين يهتم النقد الثقافي بالكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في الخطاب والمضادة لظاهره.

هوامش البحث:

(1) سمير الخليل: فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2014، ص 13-14.

(2) المصدر نفسه، ص 11-12.

(3) نفسه، ص 9-10.

(4) نفسه، ص 15-16.

(5) نفسه، ص 36.

(6) نفسه، ص 36-37.

(7) سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي- إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة-، مراجعة وتعليق سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016، ص 144.

(8) سمير الخليل: فضاءات النقد الثقافي، ص 46-47.

(9) المصدر نفسه، ص 47-48.

[10] نفسه، ص 50.

[11] نفسه، ص 61-62-63.

[12] نفسه، ص 64.

[13] سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، ص 5.

[14] المصدر نفسه، ص 7.